



## ما وراء التاريخ (الكتاب التشغيلي للوعي التاريخي)



الأستاذ محمد ياسر الكسواني

## ما وراء التاريخ الكتاب التشغيلي للوعي التاريخي

أ.محمد ياسر الكسواني

2016/10/4

## ما وراء التاريخ

### الكتاب التشغيلي للوعي التاريخي

1- بسم الله الرحمن الرحيم الذي علم الإنسان، وعلمه بالقلم حتى أظهر ما في عقله وأبان، بمناسبة معرض الكتاب الدولي في عمان، الذي بدأ يوم الأربعاء 26 من ذي الحجة لعام 1437 هجري، الموافق 28 من أيلول لعام 2016 إفرنجي.

### أولاً: الإطار النظري

2- فالنظام التشغيلي يجعل الأحكام تختلف من إنسان إلى إنسان، فتختلف القيمة في الحكم على الأشياء، فتجد مثلاً من يرى أنه يريد أن يرقى بنفسه إلى العشييرة، وفي المقابل يرى ذلك الآخرون ارتكاساً وليس رقياً وتقدمياً، فاختلف المنظور نتج عن اختلاف في النظام التشغيلي في الحكم على الأشياء.

3- فجهاز الحاسوب بعد أن ينزل عليه نظام تشغيلي فإنه يصير على جاهزية وقابلية للعمل بحيث يستقبل المقولات فيعيد إظهارها بما يناسب نظامه التشغيلي. وليكتمل عمل جهاز الحاسوب فإنه بحاجة لتلك المقولات التي تأتي على شكل ملفات وبرامج تطبيقية، كبرنامج قراءة النصوص أو عرض الشرائح. فالحاسوب الذي يخلو من النظام التشغيلي فإنه يفتقر للقدرة على الاستفادة منه، فهو كالمادة الخام التي تكون بحاجة إلى صقلها بصورة. أو كالجنين الذي يخلو من العلوم والعقل، فلا يقدر بعد على تعقل المسائل حتى يبدأ عقله بالنمو التدريجي ليستطيع بعدها اقتناص العلوم والمقولات.

4- وكذا الكتب فإن منها ما يتحدث عن نظم التشغيل، كالكتب التي تتحدث عن الدوس والوندوز في عالم الحاسوب، ومنها الكتب التي تتحدث عن نظم التشغيل الخاصة بعقل الإنسان. ومن الكتب ما يتحدث عن نظم التطبيق والمقولات والملفات، كالكتب التي تتحدث عن قارئ النصوص وعارض الشرائح والملفات والمقولات في عالم الحاسوب، والكتب التي تتحدث عن المعلومات والمقولات الخاصة بحياة الإنسان.

- 5- ومن الكتب التي تأتي على رأس قائمة الكتب التي تعتبر نظماً تشغيلية، القرآن الكريم كما هو معلوم وهو الذي يعطي الإنسان رؤيته التي تجعله قادراً على التعاطي مع العالم حسب هذا النظام التشغيلي العقدي الشامل، فهو كتاب إيمان وهداية.
- 6- ثم تأتي كتب أصول الفقه مع الفقه، وهي مثال جيد على النظم التشغيلية مع مقولاتها، فأصول الفقه بمثابة النظام التشغيلي الخاص وهو الذي يسبغ على المذاهب المعينة تميزاتها الخاصة، بينما كتب الفقه تمثل الملفات والمقولات المعطيات التي تنتج في نسيجها المعين عن تلك الأصول الفقهية الخاصة.
- 7- ومن الكتب التي نراها تعد في خانة الكتب التشغيلية الكتب التالية:
- أ- كتاب "غياث الأمم في التياث الظلم". لمصنّفه إمام الحرمين الجويني 419-478 هـ ب- "مقدمة" كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" الشهيرة بمقدمة ابن خلدون 732-808 هـ الموافق 1332-1406،
- ج- وكتاب المطارحات لمصنّفه مكيافلي 1469-1527 ميلادي.
- د- كتب المؤرخ شعبان صوان، ككتاب "السلطان والتاريخ، لماذا نقرأ التاريخ العثماني؟" وكتاب "الحروب من أجل المقدسات، من أمريكا الإسرائيلية إلى فلسطين الهندية الحمراء" وكتاب "أمريكا الإسرائيلية وفلسطين الهندية الحمراء. تاريخ السوابق الأمريكية للجرائم الإسرائيلية. دراسة مقارنة من كولمبس إلى لنكولن" وكتاب "معضلة التنمية الاستعمارية، نظرات في دعاوى إيجابيات الاستعمار"
- هـ- وكتب عبد الوهاب المسيري رحمه الله تعالى المتوفى 2008، وخصوصاً الجزء الأول من موسوعته عن الصهيونية، وهي ثمانية مجلدات، ولا تطبعها المطابع بل تطبع مختصراً لها في مجلدين! وكما أخبر المرحوم أن للصهاينة يد في التجهيل بموسوعته. وكتابه "دفاع عن الإنسان"، وحديثه وشرحه لمفاهيم أساس في الفهم التاريخي كالحظة النماذجية الكاشفة عن النسق الباطني، وكالجماعة الوظيفية واستعمالها واستخدامها للقضاء على حاضنتها الشعبية، والعلمانية الشاملة لحوسلة الإنسان أي تحويله إلى وسيلة.

و- وكتب الفيلسوف أبي يعرب المرزوقي التونسي ككتابه "الاجتماع النظري الخلدوني والتاريخ العربي المعاصر" وكتابه "النخب العربية وعطالة الإبداع في منظور الفلسفة القرآنية".

ز- وكتب الفيلسوف طه عبد الرحمن المغربي مثل "العمل الديني وتجديد العقل" و"روح الدين" و"الحق العربي في الاختلاف الفلسفي" و"بؤس الدهرانية" و"فقه الفلسفة" و"تجديد المنهج في تقويم التراث".

ح- وكتب عمران نزال، ككتاب "شرعية الاختلاف بين المسلمين، إسلام واحد وتعددية فقهية وعقدية وسياسية في الاجتهاد والشورى والدولة".

ط- كتب محمود محمد شاكر رحمه الله تعالى ككتاب "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا". ونكتفي بذكر هذه الكتب لمن أراد تكوين نظرة تعدد كالأساس ليبنى عليها.

8- وهذه الكتب تفيد الناظر فيها ما تفيده القراءة الكثيرة في مجالات كثيرة، فهي شاملة للرؤية تزيد القدرة على التعاطي مع الأمور التي تساعد على النهوض الحضاري. ومن يفتقد للتمعن في هذه الكتب فإنه يفتقد إلى نظام تشغيلي يختصر عليه الزمان ويُفَعِّل له مقولاته ويجعلها ذات إمكانية للتسديد والتصويب، وتكون قراءته الكثيرة في كتب المقولات ككتب التاريخ والسياسة مفتقرة لسكة الحديد التي تسير عليها تلك الحوادث المقنطرة. فمن لم يعيش مع هذه الكتب كمن لم يعيش مع كتب أصول الفقه وهو ممتلئ بالفقه، وهذا القارئ للفقه بدون أصوله تتعطل عنده القدرة على سد الثغرات التي تنشأ عند اصطدام مقولاته مع الواقع العنيد. أما من تشبع بأصول الفقه فإنه سيشعر بمشاكل التنافر بين المقولات وواقعها الشديد.

9- وهذا التشبع سيؤدي إلى رؤية تتجاوز الأصول الفقهية لكل مذهب لتصل إلى جذور الأصول، وللإستفادة من كتب النظم التشغيلية فإن العودة لها هي التي تجعلها تترسخ مع التكرار، بينما كتب المقولات تكفي منها المرة إن حفظت. لذلك كان تكرار القراءة في القرآن يجعله يفيد، بينما هجره يجعل الفائدة منه ضعيفة لعدم تفعيل هذا النظام التشغيلي الشامل.

- 10- والقراءة في القرآن إن لم تشفع بكتب النظم التشغيلية كالتي ذكرناها فإنها تكون كلا قراءة! وأنت خبير أيها القارئ المحترم بأن القرآن الكريم في هذا الزمان يقرأ في الإذاعات والفضائيات حتى الفضائيات التي تضاده وتعمل على هدمه تفتتح البث بقراءة القرآن الكريم وتنتهي إرسالها بآيات عطرة تكشف مصادمة فعلها لقراءتها! فصار القرآن مهجوراً مع أنه يزعم أنه منظور فيه ومقروء بتلاوة مجودة!
- 11- ولكن لطبيعة القرآن المختلفة عن أي كتاب آخر فإنه قادر على إحداث أثر عجيب في النفس والعقل مع الذكر حيث له خواص خارقة للعادة حتى مع من لا يحسن لغة القرآن العربية! لأنه وحي من خالق الناس، حيث يسره للذكر، ولأجل هذه الصفات اللطيفة في القرآن ندرك سبب حذف آياته من المناهج حيث أدرك الغرب خطورة القرآن بمجرد ذكره وتلاوته.
- 12- فتغيير المناهج استهدف كتب النظام التشغيلي للإنسان على رأسها القرآن، وكذا فإن التغيير استهدف حذف كثير من المعلومات، للترابط بين المعطيات ونظامها التشغيلي، إذ من فقد المعلومات الجزئية فقد توقف نظامه عن العمل، ومن فقد نظامه التشغيلي فهو قد فقد قدرته نفسها على العمل. فالاستهداف اتجه إلى ضرب النظام التشغيلي بطريقتين:
- 1- تعطيل النظام نفسه بحذف الآيات،
- 2- وحذف المعلومات الدينية بدءاً من الأسماء العربية ذات البعد والعمق الديني كفاطمة ووضع بدلاً منه لميس! كما يفعل الشيعة في العراق حيث أجبروا المسلمين على تغيير أسمائهم من بكر وعمر وعائشة إلى غيرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فالتداخل جوهري بين النظام التشغيلي والمقولات، لذلك نفهم علم آدم الأسماء كلها، فنفهم سر حذف الآيات وتغيير الأسماء، ومهاجمة الحفظ. مما يؤدي إلى العوامة الشاملة.
- 13- والعبث بالمناهج وضرب النظام التشغيلي يجعل المعلومات متناثرة بلا رابط ولا جامع، ومن هنا ندرك أن طوفان المعلومات في عصرنا الراهن قد أحدث شرخاً بين تلقي هذه المعلومات وبين القدرة على استيعابها، فتجدنا نهوى القصف بالمعلومات لئسّر التلمذ على يدي شيخنا العم جوجل! حيث لم ينتج إنساناً واعياً، لفقد

الترابط بين معلوماته، فكثرة المعلومات والمعطيات صارت ككثرة الحواس اللحظية التي لا تفهم بدون مرجعية تشغيلية.

14- فنتج إنساناً هلامياً، حيث إن الشيخ جوجل والفضائيات تساوي بين الصالح والطالح ثم تفضل الطالح وتقدمه وتؤخر الصالح، وفوق ذلك هي تحذف أو تحرف بالتأويل المعلومات، ليلتبس الحق بالباطل، ويكون راسو (ابن عرس) الفارسي بالتعاون مع الروسي أبو طين والتنسيق الأمريكي يريد تحرير القدس عن طريق إبادة العرب والمسلمين في العراق وسوريا والجزيرة العربية! لأنهم إرهابيون وهابيون وليسوا من أهل السنة والجماعة حسب تصنيف مؤتمر الشيشان بزعامة الباطنيين.

### ثانياً: بعض المفاهيم التشغيلية

15- ونحاول أن ننتفع من بعض الكتب التي ذكرناها، ونخص الثلاثة الأولى، "غياث الأمم في التياث الظلم" لإمام الحرمين الجويني، ثم "مقدمة ابن خلدون"، ثم "مطارحات ميكافيللي"، فنلتفت إلى كتاب "الغياثي" ونقول عنه بأنه كتاب فريد في بابه عظيم في أصوله جميل في عبارته، احتوى على أحكام الإمام وتنصيب الحكام، كما أنه اهتم بمقاصد الشريعة وكان أول من بحثها بقوة ووضع أحكاماً خاصة، استنبطها من أصول الشريعة بنظرة عميقة مشبعة في الفقه وأصوله، فتحدث عن زوال الحكام بالإسلام وبقاء الناس بدون رعاية ناظمة لهم من زعمائهم، وتخيل انقراض حملة الشريعة الإسلامية، واهتم بالإجماع.

16- فكان أن انتفعنا من كتابه التشغيلي لتصنيف كتابنا "مدارك العقول، دور الإجماع والعوام في نهضة أهل الإسلام" فأعدنا النظر في كتابه وتجاوزناه بالقول بأهمية الشعب والعوام لخدمة الإسلام.

17- وكان مصطلح "ما وراء" الذي وضعناه في عنوان هذه الورقات قد استلهمناه من الجويني في كتابه "الغياثي"، فقلنا في كتاب "مدارك العقول": «وقد استخدم بعض

العلماء جملة "التحرر من الالتزام المذهبي"<sup>(1)</sup> وهي لا تفيد المعنى الأصولي العميق والمستنير لجملة الجويني "ما وراء المذاهب". فما وراء المذاهب تفيد معنى العمود الفقري الذي نعود له، أو بعبارة أخرى بمثابة الخلايا الجذعية وتسمى خلايا المنشأ التي نعود لها لاستنبات عضو بدل التالف بدلاً من البحث عن أعضاء أخرى لاستبدالها بالتالف، وقد أطلق عليها الشعراي في كتابه "الميزان الكبرى" عين الشريعة، وشبهها بالكف والأصابع، فالكف هو عين الشريعة، والأصابع هي المذاهب، أو كالمهر وفروعه وجداوله، أو كالشجرة وأغصانها.

أما التحرر من المذاهب فهي بمثابة البحث عن أعضاء وقطع غيار من المستعمل، وهذا لا مشكلة فيه بل هو ضروري ومفيد أحياناً، لكن العبارة مستحيلة المعنى منطقياً، إذ التحرر من المذاهب مستحيل وخصوصاً بالمعنى المقصود عند مستخدميها، فهم يقصدون التحرر من المذاهب المعروفة والبحث عن المذاهب المجهولة أو المتروكة، فهم لم يتحرروا من المذاهب وإنما تحرروا من المذاهب المشهورة فقط، بينما ما وراء المذاهب تفيد معنى "أم الكتاب" التي يحمل عليها "متشابه الكتاب"، فهي كخلايا المنشأ التي يتولد منها الجديد، وكذا تطوي في داخلها معنى البحث عن البدائل في المذاهب ولكن على أسس وأصول متينة.

هذا وإن طريقة "ما وراء المذاهب" ربما أمكن استثمارها لتنظيم عقد جديد لتأسيس العلاقات الدولية وليس الإسلامية فقط، فالأخذ بالقواطع الدينية يلزم الفرد المسلم بأمور لكن الجماعة الإسلامية تشترك في هذه القواطع مع غيرها من الجماعات الإنسانية، ... وهناك من يستخدم مصطلح "ما وراء الأيديولوجيا" ثم تقف عليها "الأيديولوجيا" ثم "الباراداييم" ثم "الاستراتيجية" ثم الخطط التنفيذية<sup>(2)</sup>. ويمكن أن نقول حسب مصطلح الجويني: الخطط والأساليب والوسائل بعد "الطريقة والخطة الرئيسة" المبنية على "المذاهب" وهي مبنية على "أسس وأصول المذاهب" المستمدة من "ما وراء المذاهب". فالشريعة كالقماش والمذاهب كالثياب الخاصة التي تصنع من القماش.

(1) في فقه الأقليات المسلمة، حياة المسلمين وسط المجتمعات الأخرى" يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط1، 1422-2001، ص57.

(2) "النهضة من الصحوة إلى اليقظة" جاسم سلطان، ص 26-32. انظره على موقعه.

- 18- فكان مصطلح ما وراء التاريخ له هذا العمق، في البحث عن النشأة والكيفية، فنفرق بين التاريخ والتأريخ، والخبر وما وراء الخبر.
- 19- وكان للجويني نظرات مهمة في مبحث الإجماع وأن مباحث الحكم ترتكز عليه، فكان لنا رأينا الذي وضعناه في "مدارك العقول" مستقين له من كتب الأصول للتفريق بين الإجماع السياسي المتغير لأنه من الدنيويات، فانتفعنا بذلك للقول بأن إجماع المتقدمين على جواز حكم المتغلب كان للضرورة الاستثنائية، ولكن صار الاستثناء هو العادة، فحان الوقت للعودة للأصل وترك الاستثناء، فكانوا مصيبين لوقتهم وأخلاقيين لحوادث زمانهم، وحن دورنا لناخذ زمام المبادرة ونثبت أخلاقياتنا لزماننا القشيب.
- 20- وللإمام الجويني نظرة لطيفة في تبين مذهب أهل السنة وتفريقه عن مذهب الشيعة الإمامية، وتوضيح لمذهب الاختيار لتنصيب الحاكم الإمام، بدلاً من الحق الإلهي عند الشيعة الجعفرية، وتعرضنا لمسألة أهمية الشوكة في فكر أهل السنة، ثم تعقبنا ذلك بالثغرة التي حدثت في فكرنا عند شرح الإمام الجويني لبيعة الصديق. فهو يبدأ بالقول في فقرة 63: اتفق المنتمون إلى الإسلام على تفرق المذاهب، وتباين المطالب على ثبوت الإمامة، ثم أطبقوا على أن سبيل إثباتها النص أو الاختيار، وقد تحقق بالطرق القاطعة والبراهين اللامعة بطلان مذاهب أصحاب النصوص، فلا يبقى بعد هذا التقسيم والاعتبار إلا الحكم بصحة الاختيار، ثم قال في فقرة 66: فلم يبق إشكال في انعقاد الإجماع على الاختيار، وبطلان المصير إلى ادعاء النص.
- 21- ثم في فقرة 86، تعرض لبيعة الفاروق للصديق فقال: الذي أراه أن أبا بكر لما بايعه عمر لو ثار ثائرون، وأبدوا صفحة الخلاف، ولم يرضوا تلك البيعة، لما كنت أجد متعلقاً في أن الإمامة كانت تستقل ببيعة واحد، وكذلك لو فرضت بيعة اثنين أو أربعة فصاعداً، وقدّرت ثوران مخالفيين، لما وجدت متمسكاً به اكراتاً واحتفال في قاعدة الإمامة.



ولكن لما بايع عمر تتابعت الأيدي، واصطفقت الأكف، واتسقت الطاعة، وانقادت الجماعة.

وتابع في فقرة 87: فالوجه عندي في ذلك أن يعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياء، تحصل بهم شوكة ظاهرة، ومنعة قاهرة، بحيث لو فرض ثوران خلاف، لما غلب على الظن أن يُصطلم أتباع الإمام، فإذا تأكدت البيعة وتأتدت بالشوكة والعدد والعدد، واعتضدت وتأيدت بالمنة، واستظهرت بأسباب الاستيلاء والاستعلاء، فإذا ذلك تثبت الإمامة، وتستقر وتتأكد الولاية وتستمر، ولما بايع عمر مالت النفوس إلى المطابقة والموافقة، ولم يُبد أحد شراساً وشماساً وتظافروا على بذل الطاعة على حسب الاستطاعة، ويتعين اعتبار ما ذكرته بأني سأوضح في بعض الأبواب الآتية أن الشوكة لا بد من رعايتها.

ثم أكد ذلك في فقرة 88 فقال: ومما يؤكد ذلك اتفاق العلماء قاطبة على أن رجلاً من أهل الحل والعقد لو استخلى بمن يصلح للإمامة، وعقد له البيعة لم تثبت الإمامة...

وسبب تعلقي بذلك أن مثل هذا لو قدر لم تستتب منه شوكة، ولم تثبت به سلطنة، فلئن كنا نتبع ما جرى، فقد كانت البيعة على هذه القضية التي وصفتها، وظهر اعتبار حصول الشوكة؛ فلنتبع ذلك. ثم تابع الجوني، 89. ثم أقول: إن بايع رجل واحد مرموق، كثير الأتباع والأشياء، مطاع في قومه، وكانت منعته تفيد ما أشرنا إليه انعقدت الإمامة. وقد يبايع رجال لا يفيد مبايعتهم شوكةً ومنَّةً قهريةً، فلست أرى للإمامة استقراراً.

والذي أجرته ليس شرطاً إجماع، ولا احتكاماً بعدد، ولا قطعاً بأن بيعة الواحد كافية". انتهى كلام الإمام الجويني.

22- فمع دقة فهم علماء أهل السنة لبيعة عمر الفاروق للصديق، وأنها تتابعت عليها

الأيدي وانفقت، لكن حصلت الثغرة بإخراج العوام والنسوان، فألغى دور العدد الكبير من المسلمين، وانحصرت في من له قوة قاهرة وشوكة غالبية! ونحن الآن بحاجة لتجاوز هذه الثغرة وإعطاء المسلمين قيمتهم بدل حصرها فيمن امتلك البندقية، فالأصل أن صاحب البندقية يكون حارساً للشعب وليس قاهراً لأصله الذي هو الشعب! وثغرة ثانية حصلت بعد قولهم بالاختيار حيث عادوا عليها بالنقض بتجويز ولاية العهد، واستند الجويني إلى الإجماع في شرعية هذا الأمر! كما ورد في فقرة 206-207. لذلك نقلت في كتاب "مدارك العقول" قول الجابري: "لا يكفي... استلهام نموذج «السلف الصالح» وحده، فهذا النموذج إنما كان

نموذجاً كافياً لنا يوم كان التاريخ هو تاريخنا، يوم كان العالم كله «يقع» في عقر دارنا...»<sup>(3)</sup>.

23- وقبل أن ننتقل عن كتاب "الغياثي" نذكر بجملة الإمام الجويني: "لا يكاد يخفى جواز دفع الظلمة، وإن انتهى الدفع إلى شهر الأسلحة؛ فإن من أجله أصول الشريعة دفع المعتدين بأقصى الإمكان عن الاعتداء..."<sup>(3)</sup> الغياثي، فقرة 828. ويبدو الآن أنه آخر ما بقي من كليات الدين الإسلامي لمن ألقى السمع وهو شهيد.

24- وننتقل الآن إلى كتاب مقدمة ابن خلدون، قال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي عن ابن خلدون إنه: "قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة للتاريخ، هي بلا شك أعظم عمل من نوعه خلقه أي عقل في أي زمان ومكان".، وقال روبرت فلينت: "من جهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم. إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط وجدنا من يتفوق عليه حتى بين كتاب العرب أنفسهم، وأما كواضع نظريات في التاريخ فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان، حتى فيكون بعده بأكثر من ثلاثمائة عام، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أغسطين بأنداد له، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه... كان رجلاً منقطع النظير بين أهل دينه ومعاصريه في موضوع الفلسفة التاريخية كما كان دانتي في الشعر ويكون في العلم بين أهل دينهما ومعاصريهما"<sup>(4)</sup>.

25- وكان ابن خلدون فارس الميدان في البحث في "ما وراء التاريخ" باحثاً منقياً عن الجذور والبدور والمحيط والكيفية. قال ابن خلدون: "إن فن التاريخ ... في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق". وقال الجابري: "كانت المسألة الأساسية لابن خلدون التي شغلت باله والتي تدور

<sup>(3)</sup> «الدين والدولة وتطبيق الشريعة» د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية. ص 130، 136، 156-158، 201، ط 1، 1996.

<sup>(4)</sup> "فكر ابن خلدون العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي"، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 6، 1994، ص 130.

علمها أبحاثه ودراساته هي، كيف تنشأ الدول، ما هي عوامل ازدهارها وأسباب هرمها؟<sup>(5)</sup>، بما يمكن أن نسميه فكرة "ما وراء الدول".

26- وكما قلنا في الإطار النظري فإن النظام التشغيلي يحتاج إلى معلومات ومعطيات لتفعيله وليعمل عليها، لذلك ننقل قول المؤرخ شعبان صوان عن سؤال لماذا علينا الاهتمام بالتاريخ كما نهتم بما وراء التاريخ: "والسؤال الذي يجب عنه كثير من العرب بازدرء هو: لماذا نقرأ التاريخ؟ فتجد كثيراً من نخب العرب الآن لا تهتم بالتاريخ، وتجد الدول العربية لا تعني به لأنها تريد أن تضعف ذاكرة العرب لينسوا. قال المؤرخ شعبان صوان في كتابه "السلطان والتاريخ، لماذا نقرأ التاريخ العثماني؟": "لسنا مختلفين عن الآخرين الذين يدرسون تواريخهم، كثيراً ما نسمع في بلادنا اعتراضات على البحث التاريخي والمناقشة في الماضي...

ولكننا نجد أن أكثر الدول تقدماً تقنياً، وهي الولايات المتحدة، تولي الاهتمامات التاريخية التفاتاً عظيماً، بل نجدها لافتقادها البعد الزمني في تاريخها القصير، تحاول نحت تاريخ بأي شكل من الأشكال يصل حد الهوس بتفاصيل غريبة: أين الورقة التي كتب عليها أبراهام لنكولن خطابه؟ وما هي النكت التي كان يتداولها؟ ومن هم أبناء جيفرسون غير الشرعيين؟ وأين قضى تقاعده؟ وما هي آخر الأبحاث والحفريات في عظام المشاركين في معركة أو ضحايا مجزرة؟ وكيف تطورت أطلال معركة ما منذ وقوعها قبل 150 عاماً؟ وهكذا. لم يقل أحد إن هذه الاهتمامات تصرف عن التقدم وتؤخر الأمة ... ومع وفرة الدراسات التي ترصد التراجع الأمريكي، لم نجد واحدة منها أشارت ولو من بعيد إلى أن الاهتمام بالتاريخ من أسباب هذا التراجع ... ومن الطريف أيضاً أن عدونا الصهيوني الذي ينظر له الكثيرون كنموذج للتقدم قامت دولته على أساس الحفر في طبقات التاريخ العميقة والبحث في ثنايا الأساطير الماضية ... بل إن هذه الأبحاث التاريخية هي حوافز السياسة الصهيونية"<sup>(6)</sup>.

27- والبحث فيما وراء التاريخ يقودنا إلى الدين، فقد رأى ابن خلدون أن العرب لا تقوم لهم قائمة إلا بالدين، فكانت الأسس التي رآها لبناء دولة هي الدين والعصبية

(5) ص 119.

(6) "السلطان والتاريخ، لماذا نقرأ التاريخ العثماني؟"، شعبان صوان، دار الروافد، ودار ابن النديم، الجزائر، ط1، 2016، ص 13 وما بعدها.



والعرف التي تصير طبعاً ثانياً للإنسان. فقال عن العرب والدين: "في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهى لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات". وقال: "في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه".

28- والعصبية والنسب أساس لا يستغنى عنه لتقوم الدولة، ولكن يستغنى عنه إن استحكمت الدولة، فالنسب أمر وهمي، وليس هو الرابطة الدموية إلا في بدايتها، لأنها تضعف بل تنقلب عند اختلاف المصالح، فحقيقة النسب والعصبية الولاء وطول العشرة، وتحل محله المصلحة المشتركة، كما تفعل الجيوش فنسبها مصلحتها وليس قرابة الدم.

29- ومع أن ابن خلدون تحدث عن أهمية العصبية ودورها في بناء الدولة الإسلامية، إلا أن لها محاذيرها التي فتكت بالمسلمين، فكانت العصبية ذا حدين، فإن خضعت للدين تهذبت ونفعت، وإن تغولت على الدين وكانت فوقه أدت إلى ما نراه، قال شكيب أرسلان في تعليقه على ابن خلدون، "على أن إفراط العرب في التمسك بأنسابهم قد أوجد بينهم من العصبية بعضهم على بعض ما لا يوجد في أمة سواهم، حتى أن دوزي الهولندي المعدود من أوسع المستشرقين علماً ذكر في كتابه

عن مسلمي إسبانية أن العداوة التي بين العدنانية والقحطانية قد تكون أشد من العداوة التي بين العرب والأعاجم. والحقيقة أن هذه العداوة نفسها هي التي كانت الأصل الأصيل في فقدهم الأندلس، بل في نكوصهم عن قلب أوربة بعد أن وطئوه بأقدامهم، وكادوا يستولون على تلك القارة، وقد كانوا كلما تم لهم الظفر في واقعة على الأجناب عادوا فاقتتلوا فيما بينهم بين قحطاني ومضري، ففشلوا وذهبت ريحهم، واضطروا أن يعودوا من حيث أتوا. ولم ينحصر ضرر هذه العصبية في الأندلس والمغرب، بل قد أفنت القبائل العربية بعضها بعضاً في المشرق أيضاً، وصرفتهم عن التبسط في الفتوحات، فما كانوا قد حازوه بشجاعتهم وعلو همهم؛ فقد فقدوه في منازعاتهم الداخلية بوقوع بأسهم بينهم،... وكل عربي تنزع فيه العصبية إلى قومه، فلا يسلم من ذلك أحد"<sup>(7)</sup>.

30- ونريد أن نتطرق لدور العوام والطبقة الوسطى في التاريخ الإسلامي، قال محمد عابد الجابري: "الفئات الوسطى ما كان يطلق عليهم طبقة العامة (الفلاحون، الصناع، التجار... الخ) لم تكن تلعب أي دور أساسي في أحداث التاريخ الإسلامي أو على الأقل نادراً جداً ما كانت تأخذ بزمام المبادرة"<sup>(8)</sup>. وحاولنا في كتابنا "مدارك العقول، دور الإجماع والعوام في نهضة أهل الإسلام" اكتشاف دورهم حتى تكون لهم يد في إنقاذ أنفسهم، ورأينا أنها فكرة تشغيلية تصلح أن تكون مما وراء التاريخ لتساهم في صنعه بدل أن تطفو على أمواجه المتلاطمة أو تغرق في الأكثر في لجته.

31- ولابن خلدون كلام مهم في زوال وفقدان معاني الإنسانية، وهي فكرة تساعدنا في فهم ما الذي يجري الآن من مسخ وسلخ لإنسانية الإنسان العربي بشكل خاص وللبنشيرية بشكل عام، قال رحمه الله تعالى: "في أن الأمة إذا غُلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء... واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير وأكثر من الكثير يقال إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم

(7) تعليقات الأمير شكيب أرسلان على غوامض أبحاث ابن خلدون في تاريخه، الدار التقديمية، ط1، 2011، ص35.

(8) فكر ابن خلدون للجابري، ص270.

فمملكة الإسلام في العدل ما علمت، وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره". ويبدو أن من بقي من ابن عرس (راسو) الفارسي ظل حاقداً على العرب والمسلمين حتى جاءتهم الفرصة السانحة فكانت هذه اللحظة النماذجية الكاشفة عن مدى غلهم وحقدهم على المسلمين، فقبلوا أن يكونوا عبيداً للأمريكيين وللروس بل للصينيين حتى يقتلوا كل طفل من العرب، ويصنعوا العجب في حلب!

32- وقال أيضاً: "في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الإنسانية التي له". وبه نفهم سر توحش الجيوش العربية على شعوبها لتذهب إنسانيتها وتصير مخادعة همها الدنيا. وتذكر قوله تعالى: "فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين". فذهاب معاني الإنسانية تؤهل حاكمهم ليستخف بهم كما نرى في وقتنا بعضنا يعزي في قاتلنا ولا يستحي، والبعض يدافع عن الذين لا يستحون، بسبب زوال معاني الإنسانية.

33- ونتقل إلى الكتاب الثالث وهو "المطارحات" لمصنفه ميكافيلي، لنقارنه مع تمديد عمر الدولة مع ابن خلدون، فهما يشتركان في النظرة إلى دورية الدول، ولادة ثم نضجاً ثم هرماء، وكان لابن خلدون نظرة لكنها محصورة في خبرته التي استقاها من واقعه العربي، وكان لميكافيلي خبرة أخرى لتمديد عمر الدولة استقاها من اطلاعه على تاريخ الرومان، وميكافيلي له عشق لأجداده الرومان، فهو إيطالي. ورأى ابن خلدون التمديد عن طريق الولاء الجديد أما ميكافيلي فتمديد عمر الدولة عن طريق الشعب والجمهورية، ويلجأ إلى الدكتاتورية بمعنى المستبد بالقرار لفترة مؤقتة والغريب أنه يأتي بالانتخاب!

34- قال انتوني بلاك: "ربما كان ابن خلدون الاستثناء الوحيد للفكر التبريري الفقهي والكتابات الفلسفية المثالية، إذ اهتم بتوصيف الواقع السياسي وتطوره، وربطه

بالبناء الاجتماعي القائم، مستخلصاً عبر ذلك القوانين العامة لحركة المجتمعات وسيرها، ولنشأة الدول وتطورها، فكانت هذه القوانين في معظمها صالحة لتوصيف الكثير من المجتمعات الإنسانية والدول التي جاءت بعد ابن خلدون وحتى عصرنا الراهن، ومع أن ابن خلدون تناول علم السياسة، ليس بمعنى الأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية، بل بالمعنى الاجتماعي الحديث، انطلق من أصول إسلامية في الوقت ذاته،...: فإن رجل الدولة الحكيم سيعمل، كما كان ميكافيللي أيضاً سيقول، ضمن حدود العالم كما يجده، ويعالجه بقدر ما يمكنه لمصلحة الاستقرار والعدالة.

هناك بعض التشابهات بين ابن خلدون وميكافيللي... وقد رأى كلا المفكرين أن التغيير السياسي أمر دوري يتكرر وليس تقدماً.

كان ابن خلدون الشخص الأول الذي يطبق المعايير المنطقية والطريقة الفلسفية في تفسير الوقائع التاريخية... فابن خلدون مثل القدماء وميكافيللي... يرى أن التاريخ يتحرك في دورات، وبشكل عام لا يوجد تقدم صاعد... والشرط المثالي... لدى ابن خلدون هو الخلافة السنية مع النظام الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي دعا إليه الفقه الإسلامي.

وبينما لا يقدر ابن خلدون بشكل واضح ما يمكن عمله لمنع تفكك الحضارة، فقد استقصى ميكافيللي كيف يمكنك تمديد حياة جمهورية أو إمارة إلى ما بعد أجلها الطبيعي.

جدير بالملاحظة أن هذا الفيلسوف الأكثر أصالة بين الفلاسفة المسلمين... كان ابن خلدون قادراً على النظر إلى القيم الدينية وسيلة لدعم النشاط الاجتماعي ومنع الانهيار الإمبراطوري، بينما رأى ميكافيللي أن الفضائل المسيحية هي عقبات في طريق العمل السياسي الفعال"<sup>(9)</sup>. انتهى كلام انتوني بلاك.

35- ويتحدث ميكافيللي عن الثورة الشاملة العامة من كل الشعب وأنها تحقن الدماء وأقل خطراً من الثورة بالتقسيم المميتة، فقال: "أما عندما يكون الشعب بكامله هو الراغب في تحطيم ذلك النظام في الحكم... فليس ثمة من مجال لإيقاع الأذى،

(9) الغرب والاسلام الدين والفكر السياسي في التاريخ العالمي، انتوني بلاك، عالم المعرفة 394، ص28. ص165.

بأي إنسان سوى شخص الحاكم نفسه... ولا يكون هذا النوع من الثورات مصحوباً بالكثير من الخطر"<sup>(10)</sup>.

36- وهذا نص ممتاز على العوام، قال: "وأصل الآن إلى استنتاج يتعارض مع الرأي الشائع والقائل بأن العامة عندما تكون في وضع السلطان، تكون متقلبة ومذبذبة وناكرة للجميل، وأؤكد أن هذه الأخطاء عند العامة، لا تكون مختلفة في أي حال من الأحوال عن تلك التي توجد عند بعض الأمراء، ولو وجه هذا الاتهام إلى كل من الجماهير والأمراء لكان صحيحاً، أما أن يستثنى الأمراء منه، فشيء يخالف الحقيقة، إذ عندما تكون العامة في الحكم، وتكون حسنة التنظيم، فإن الاستقرار يكون طابعها، والعقل والاعتراف بالجميل يميزانها، بنفس الطريقة أو أفضل من تلك التي يظهر فيها الأمير"<sup>(11)</sup>.

37- وله نص جميل ننتفع به لوضعنا في حلب خصوصاً والمنطقة عموماً، فيقول عن الشعب: "وحتى لو جردته من سلاحه، فإن سورة غضبه عليك ستؤمن له السلاح، ولو ذبحت قاداته وقضيت على جميع مظاهر العصيان عنده، فإن قادة آخرين سيظهرون تماماً كما تظهر رؤوس التنين بعد قطع رأسه"<sup>(12)</sup>.

38- ونختم بقول الفارس الحكيم الحارث بن عباد في قصيدته الشهيرة "قرباً مربط النعامة":

يالقومي من حادث قد دهاني  
ولحرب يشيب منها قذالي

أصبحت حربنا وحرب أينا  
باستعار تشب بالأهوال

بعد سلم وألفة واجتماع  
وتعاط بالعرف والأموال

(10) مطارحات مكيفالي، تعريب خيرى حماد، المكتب التجاري بيروت، ط1، 1962. ص631.

(11) ص409.

(12) ص535.





فلقد تلحق بالبري دم الحرب  
وتردى بالأصلح المحتال

وتعاطى أهل النهى فتراهم  
عند جد الأمور كالأعزال

